دمعة ...

على مساجد الفسطاط وآثاره

للأستاذ أحمد رمزى

كانوا مصابيحاً لدى ظلم الدجى يسرى بها السارون فى الإدلاج
كانوا ليوثاً لا يرام حماهم فى كل ملحمة وكل هياج
فانظر إلى آثارهم تلق لهم علماً بكل ثنية وفجاج

* * *

نشرت مجلة الإخوان المسلمين كلمة فى عددها الماضى تتلخص فى أن أحد النواب صرح بأن فى مصر القديمة ثمانية أديرة وكنائس عدة ، تقابلها مصلاة واحدة من الطين والبوص على شاطىء النيل وقد اهتمت السلطات لهذا الأمر .

وأبدأ حديثى بأن أشكر إخواننا المسيحيين من مختلف طوائفهم وملهم أن عرفوا كيف يحفظون آثارهم ومعابدهم وهى حق لهم ومفخرة لمصر ؛ وأجزل لهم الشكر والثناء لأنهم بعملهم هذا وسهرهم على تراث آبائهم والمحافظة عليه قد ألقوا علينا درسا مفيداً نحن معاشر المسلمين فى القرن العشرين .

ولا أجد ما أعبر عنه للسلطات إذا صدق ما قيل من اهتمامها لهذا ؛ فإن هذه الحمية لدليل على وعى قوى ويقظة لم نعهدها من قبل ؛ ولذلك نؤمل وننتظر أن تتبع هذه الحمية أو هذه البادرة الطيبة بالعمل الصالح الجرىء النافذ ؛ فتعيد لهذه البقعة بعض ما اندرس من آثارها ومفاخرها .

ولقد أثارت هذه الكلمة الكثير من شجونى وآلامى ، وأعادت إلى ذكرى الماضى العربى فى أجلى مظاهره ؛ فعدت لنفسى ورجعت إلى الوراء ، وتذكرت ما قرأته وسمعته عن عهود كانت فيها هذه البقعة من الأرض عامرة بمساجد الله وبالآثار الإسلامية ؛ فعلمت كيف نزلت بها القبائل العربية أيام الفتح الإسلامى ، وكيف استوطنتها واتخذت فيها الخطط والمنازل وكيف أصبحت اليوم خالية خاوية .

فمن المسئول عن هذا الخراب الشامل ؟ وهذا الليل الذ نعيش فيه ؟

إن تحميل الزمن وأحداثه كل العبء من الأخطاء والأزر التى نعانيها أمر سهل ؛ ولكنه لا يتفق مع الحياة ؛ والأمم تح وتتغلب بحيويتها ونشاطها وتصميمها وعنادها على حوادث الزم ومصاعبه ؛ ولذلك فإنى أحمّل المسلمين فى مجموعهم مسئولية ه العبث بآثارهم ، لأنهم جهلوا ماضيهم وآباءهم وأجدادهم وتهاو فى أمورهم لما تنكروا لأصولهم وأمجادهم ، وتناسوا منزلة دينهم وأثره فى شؤون العالم ، فحقت فيهم كلمة التنزيل « ومن أظلم مم منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها » .

وقلت أين علماء الإسلام ؟ ما لهم لا يقومون بأداء الأمانة الت فى أعناقهم فيعلمونا ما نجهل من أمرنا وأمر ديننا وشؤون م تقدم منا ؟ لقد قرأنا عن السلف الصالح من رجال الدين مم حملوا رسالة الشافعى وغيره من أئمة المسلمين طول القرون الماضية أنهم قوم جاهدوا فى الله خير جهاده ؛ بذلوا أنفسهم فى سبيل العلم ، والبذل فى سبيل العلم بذل فى سبيل الله ، وكانو أشداء إذا اقتنعوا بالحق جهروا به ، رحماء بين أنفسهم ومع الناس

فأين جهودهم وأين علومهم وهم أولى الناس ، أن نتلقى دروس الماضى عنهم ؟

* * *

والآن قف بالله على أرباض الفسطاط ومنازل العروبة الأولى وموطن الإسلام أيام الفتح ! ماذا ترى ؟ أطلالا وراء أطلال وكانت هذه الجهة عروس الدنيا . إننى أنظر إلى وصف الأقدمين لها ، وأرجع إلى ما كتبه المقريزى والسيوطى وابن دقاق وغيره وإلى علماء الزارات ، فأشعر بالحسرة تملأ نفسى وتحز فى قلبى وأعود إلى الخرائط الحديثة والقديمة وإلى وصف الرحالين لهذ البقاع فلا أعثر على ضالتى ، وإلا فاعلمنى أين جامع الفتح مثلا بل وأين جامع راشدة ؟

لقد كان موقعه بين دير الطين والفسطاط ، فى خطة راشدة وهى قبيلة من قبائل العرب وبطن من لخم ، نزلوا هناك عند الفتح وأنشأوا لهم جامعاً ، ثم عاد الحاكم بأمر الله فجدده وعلق فيه قناديل

عنة ، وعُمّر بعد ذلك مراراً ؛ وكان يمتلىء بالناس لكثرة
وله من السكان . هذا هو قول المقريزى ، فانظر ما يقوله على
ث باشا فى خططه ، وقد زال هذا الجامع ولم يبق له من أثر .
أما جامعنا العتيق وهو جامع عمرو فباق مع الزمن ، يحدّث
مجاد العروبة والإسلام ، وقد فكر المغفور له الملك احمد فؤاد
ب طيب الله ثراه أن يعيده إلى سابق مجده ، متخذا فى ذلك
من تقدمه من ملوك الإسلام فى مصر ، وعملت له مسابقة
، فتى يتم هذا العمل الجليل وأراه يتألق فى مجده القديم ،
م ناظرى بلوحة من الرخام وقد نقشت عليها بحروف ذهبية
ت عمرو بن العاص فى إحدى خطبه حينما قال لأهل مصر :
« إعلموا أنكم فى رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء
كم ، تتجه قلوبهم إليكم وتتشوق إلى ديارَكم معدن الزرع والمال
، الواسع والبركة النامية » وكانت خطبته بجامع عمرو
واستشهد بما سمعه عن الرسول صلوات الله عليه إذ قال :
« إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً فذلك
خير أجناد الأرض » فمتى يتم ذلك وتعمر الأحياء حوله ، وتعود
مسجد العتيق فتمتلىء رحباته بالمصلين يوم الجمعة ؟ وهو الذى
وحده إذا ذكر ، أمجاد مصر وأياديها فى خدمة الشريعة
ة دين الله ، وهو الذى سطع نجم الشافعى فيه ، والإمام
ة من مفاخر مصر العربية فى الماضى ، وموضع اعتزازها فى
ال القادمة باذن الله

يذكر صاحب النجوم الزاهرة أن الملك المعز أيبك ، وهو أول
الدولة التركية بالديار المصرية والشامية ، أنشأ المدرسة المعزية
نيل بمصر القديمة ووقف عليها أوقافا ، وكان مدرسها القاضى
، الدين الخضر ابن الحسن السنجارى . فأين الآن هذه المدرسة
لمية ؟ ولماذا لا تعاد إلى مكانتها من العز السالف ، كما أعزها
ا وبانيها ؟

لئن قلت موارد وزارة الأوقاف ونضبت ، فهل أعلنت أن
ة فى حاجة إلى المال فقبض الناس أيديهم عنها ، وبخلوا
باتهم وتبرعاتهم ليعيدوا أثراً لهم من آثار السلف الصالح يقيمون
شعائر الإسلام ويفخرون به .

* * *

وكان على شاطىء النيل الجامع الجديد الناصرى ، أنشأه الناصر محمد سنة ٧١٢ هجرية وكانت له أربعة أبواب وفيه مائة وثلاثون عموداً وكان بمصر القديمة ، ووصفه المقريزى وصفاً دقيقاً وقال « تولى الخطابة فيه قاضى القضاة بدر الدين محمد بن ابراهيم ابن جماعة الشافعى ، ورتب فى إمامته الفقيه تاج الدين بن مرهف » . وكان الملك الناصر محمد بن قلاوون ملكا ملء عين الزمن ، وكان أئمة الدين وعلماء الإسلام وقضاتهم يتقربون إلى الله بخدمة الشعب والامتزاج به ورعايته كما رعى أنبياء اسرائيل خراف اسرائيل الضالة ، ولم تكن لأخذتهم الأنفة وعلوا علواً عظيماً ، فوجدوها كبيرة على أنفسهم ، إذا تولوا الخطابة والإمامة بمساجد الله ، وقد كان الملوك والخلفاء والعظماء يتولونها فى السابق ، وكان النبى يؤدى رسالته بالمسجد ويقوم بين الناس إماما وخطيبا .

وأعود لمسجد الناصر فهل تعرفون له مكاناً فتدلونى عليه ؟ من استملك أرضه واستحل بناءه ؟ وأين أنقاضه وحجارته ؟

وتعال معى إلى أثر النبى ، وهى التى يريدون برغم أنف الزمن ، تعويد الناس أن يطلقوا عليها اسم الساحل القبلى ، وابحث عن رباط الآثار النبوية ، تجده لا يزال قائما ، ولكن لو كان ملكا لطائفة من طوائف الأديان الأخرى ، سواء أقلت أم كثرت ، هل ترضى لنفسها أن تتركه على مثل حالته ؟ وهل يليق بدولة إسلامية عربية أن تترك هذا الأثر الإسلامى المنسوب إلى النبى عليه الصلاة والسلام على ما هو عليه ، وهو أول مسجد يقابلك وأنت تدخل القاهرة من الجنوب ؟ ذكره القدماء وأشاروا إلى الآثار النبوية التى كانت مودعة فيه وإلى تبرك الناس به . وقال المقريزى إنه أدرك لهذا الرباط بهجة وللناس فيه اجتماعات ، وقال إن سلطاننا الملك الأشرف شعبان تغمده الله برحمته ، قرر فيه درساً للشافعية وكانت به خزانة كتب عامرة .

وهذه الآثار النبوية هى التى أوحت بالشعر لكثير من شعراء ذلك العهد ومنهم خليل بن أيبك الصفدى فقال :

أكرم بآثار النبى محمـــد ... من زاره استوفى السرور مزاره
يا عين دونك فانظرى وتمتعى ... إن لم تريه فهذه آثاره

فهل فكر أحد من الناس أن يعاد ترميمه وأن ترجع آثار النبى إليه ؟ وأن تزرع حوله حديقة على النيل ، وأن ترد إليه

مكتبته ، والكتب رخيصة الآن ؟ وأخيراً درس الحديث فى هذه البقعة ما أجل وقعه على النفس !

هذه مصر القديمة أو العتيقة أو الساحل القبلى ، لماذا لا نعيد إليها اسم الفسطاط الذى عرفت به وعرف بها طوال القرون الماضية ، ونعيد اسمى العسكر والقطائع للجزء الشمالى منها ؟ فنقول قسم الفسطاط بدل مصر القديمة ، ومحطة الفسطاط ونضع مشاريع الإصلاح بشرط ألا نمس القديم ، ونتخذ فيها مايحفظ الباقى منه .

إننى أرسلها كلمة حق فى سبيل الله ، لأنها فى نظرى البقعة الطاهرة ذات التاريخ التالد ، أبينا أم رضينا ، إذ يقع بينها وبين قرافة الإمام الشافعى مئات من المزارات والقباب والقبور والآثار التى تستحق عناية المسلمين ويقظتهم وانتباههم . وسيكون من نتيجة الوعى القومى العربى ، العود إلى الماضى ، وسيؤم هذه الجهة عالم الآثار للبحث عن آثارها وما ترك السلف ، ويأتيها عالم المزارات لتحقيق موضع قبر من قبور العلماء أو القضاة أو الأولياء ، ويجىء إليها المؤرخ المولع بتتبع حوادث الفتوح الإسلامية والعصور الأولى من الهجرة ، فهل تترك هذه الجهات كما هى عليه الآن بغير حمايتها ممن يهدمون الأنقاض وينقلون الأسمدة ، وهل ضاقت مصر القاهرة بضواحيها وبيدائها ، فلم تجد للمدابغ والمذابح ومخامر الأسمدة غير بقعة الفسطاط وجوار جامع العسكر ودار الإمارة ؟ بالله زر هذه الأماكن وتأمل ثم احكم معى وضم صوتك لصوتى لتقول :

إن أشنع تحقير لعصر الفتح الإسلامى وللمسلمين وكرامتهم وعزتهم فى القرن العشرين بقاء هذه الحالة فى جهة تتصل بماضيهم كما هى فى الوقت الحاضر .

***

وأعود لما كنت فيه ، إننا سنجد هناك ما يدعو الواجب الإسلامى والعربى إلى إعادته كما كان فى أوج عظمته ومجده ، مثل جامع عمرو وجامع العسكر ورباط الآثار والمدرسة المعزية ، ومنها ما يكتفى بالمحافظة عليه انتظاراً لمجهود الأجيال القادمة ، ومنها ما اندثر مع الزمن فيجب تحقيق موضعه ، وبناء نصب يذكرنا به. ولقد سمعت من بعض الجهات أنها تطلب مليوناً من الجنيهات لتصرف على تحسين أماكن الآثار القديمة بالوجه القبلى ، ف فكر أحد فى الفسطاط ، إنها المدينة التى خرجت من ت الأنقاض ، أنفقوا عليها جزءا من أجزاء هذا المبلغ الض لتكون فرجة لمختلف الفرنجة من السائحين إذ فيهم من يش لرؤية آثار العرب ويقدر ذوقه آثارهم إن لم نقدرها نحن .

ونحن لا نبالى بذلك ، بقدر اهتمامنا بالشعب المصرى الذ يطالب بما يذكره بماضيه وانحداره من تلك الأصول الثابتة .

وراء الآثار الإسلامية مجداً وقوة ، إذ تلمس من أبنيتها صولة ت النفس ، وعظمة تخلق جيلا من الناس ، سيسلك حتما مس السلف الصالح من المسلمين . وإياك أن تنسى فتصدق فينا الآ الشريفة بسورة الأنعام :

«فلما نسوا ما ذُكّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء ح إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون »

احمد رمزى

القنصل العام السابق بسوريا ولبنان .

إدارة البلديات

الكهرباء والميكانيكا

تقبل العطاءات بإدارة البلديات (بوستة قصر الدوبارة) لغاية ظهر يوم ٢٤ أبريل سنة ١٩٤٦ عن توريد وتركيب مجموعة مكونة من محرك كهربائى تيار مستمر وطلمبة ومشتملاتها لعملية مياه الرشح بشبين الكوم وتطلب الشروط والمواصفات من الإدارة على ورقة دمغة من فئة الثلاثين مليما مقابل دفع مبلغ جنيه واحد خلاف مصاريف البريد .

٤٩٠٨